# الباب الأول

# استهلال

١٦ مارس إلى ٥ أبريل ١٩٣٢م

## الفصل الأول:

# ما بعد الربع الخالي

كنا لا نزال بعيدين عن نهاية أعمالنا بعد أن عبرنا الربع الخالي عند مدينة السليل في الرابع عشر من مارس عام ١٩٣٢م. إنزاح القلق بلا شك حين عدنا مرة أخرى إلى حيث يستوطن الناس. ولكن يفصلنا عن مكة، وهي أقرب موقع نحس عنده بأننا في أوطاننا، مسيرة تقدر بسبع مئة ميل، معظمها عبر أرض لم تكتشف وغير موضحة على خريطة. كانت منطقة وادي الدواسر، بالطبع، مألوفة لدىّ، منذ زيارتي الأولى عام ١٩١٨م، عندما تطلعت من فوق أطرافها الغربية عبر مفازة المحمل التي تفصل بين وادي الدواسر ومرتفعات بيشة وعسير. لم ير هذا أي أوروبي غيري على الإطلاق. لقد قدم كل من تاميزيه والكولونيل واخوب إلى بيشة من ناحية الغرب منذ زمن طويل، وقد زارها حديثاً ليوبولد فايس، وهو ألماني مسلم[1]، من ناحية الشمال الشرقي، وهو الرحالة الذي شاهد لأول وآخر مرة واحات رنية وتربة، ولكنه، للأسف، أهمل فرصة إعداد عمل خرائط جادة.

لقد كان خط عرض بيشة معروفاً بالتقريب، ولكن بالنسبة للمدينتين الأخريين فقد كان تحديد موقعهما تقريبياً، على ما كان متوافراً من خرائط آنذاك، ومن أحاديث

---

(١) ليوبولد فايس (١٩٠٠ ــ ١٩٩٢م) مستشرق نمساوي وليس ألمانياً، أسلم وتسمى باسم (محمد أسد)، ثم كتب عدداً من الدراسات معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، وترجم صحيح البخاري، وله كتاب (الطريق إلى مكة) وكتاب (الإسلام على مفترق طرق) وغيرها من الدراسات الجيدة، انظر. نجيب العقيقي. **المستشرقون** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠) جـ٢، ص ٢٩١. (ابن جريس).

الأهالي. وعليه فإن البلاد التي نفكر في اختراقها كانت، في معظم الأحوال مجهولة، كما كان الربع الخالي نفسه، ولن يتسنى لنا دخول المسارات المألوفة نحو حضن وركبة[١]، على خلفيتهما من ناحية الغرب جبال الحجاز، إلاَّ بعد تجاوزنا لتربة.

نحتاج نحن وجمالنا، لفترة راحة قصيرة بعد جهودنا السابقة، وقبل مواجهة محن مثل هذه الرحلة. لم يكن في استطاعتنا أن نهدر الوقت، بسبب الاقتراب السريع لموسم الحج الكبير (١٥ أبريل)، والذي نأمل أن نؤديه. وأخيراً وصلنا إلى مكة في الوقت المناسب وبسير معتدل وتجنب كل إغراء للتوقف في مواقع جميلة كنا نود أن نستريح عندها.

ولذا، كان لدينا فقط (٤٨) ساعة، كبداية، لنتوقف عند السليل. وبمجرد وصولنا تم إرسال الجمال لترعى أفضل نباتات المرعى في المنطقة في وادي العفجة، بينما خلدنا إلى الراحة الذهنية والعضلية بالركون إلى عمل لا شيء. ودفعنا إلى ذلك توعك بطني نتج عن التهامنا لطعام غني بالدسم. كما تعرضنا لطقس عاصف وريح باردة، وسماء غائم بالسحب، مهدداً لنا باستمرار مثل تلك العاصفة التي واكبتنا أثناء خروجنا من الربع الخالي. قدّم لنا حاكم السليل زوجاً من الخيام للوقاية، غير أن إنطباعي حول إقامتنا المؤقتة هنا والتي لا تزال حية في ذهني برغم تباعد الزمن، كان هو الإحساس بعدم الراحة، تؤكدها دلائل الشقاء المحلي للناس.

---

(١) حضن وركبة: ــ جبلان يقعان ناحية نجد، وهما من أول حدود نجد الغربية، وفي المثل:ــ «أنجد من رأى حضناً» أي من شاهد هذا الجبل فقد صار في أرض نجد. انظر. ياقوت الحموي. **معجم البلدان**، (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م) جـ٢، ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ (ابن جريس).

كان أول قدومي إلى هذه المنطقة في عـام ١٩١٨م، وبعد أشهر قليلة، من تلك التجربة السارة الوحيدة التي عرفها الناس آنذاك، إلى حين زيارتي الثانية. كانت تلك التجربة هـي السيل الكبير، الذي دخل ذاكـرة التاريخ المحلي تحت اسم «الليلة»، أو «الكابوس» إذا ترجـمنا ذلك بلا ذلاقة لسـان. إن رعب تلك الليلة، والذي أحس به أهل أسفـل الوادي في منطقة الدواسـر، قد أخـذ معه العـديد من الأرواح البـشرية ونفقت المواشي في أعـاليه، غير أنه كـان البشيـر بالمراعي الثرية والمحاصيل الجـيدة، والآبار الممتلئة لموسم أو موسـمين. ولكن امتدت ذراع الجفاف الطويلة المميـتة فوقهم منذ ذلك الحين، ولمدة تقـارب الاثنتي عشرة سنة. والآن، مع عـودتي الثانيـة، فإن السماء المنقـضبة المنخفضة السـحب، كانت ممتلئة بالأمل الواعد نحو المسـتقبل. كان القمح، ممتلئ السنابل، يتأرجح في همس تحت ملاطفة الرياح. وبدأ حصاد الشعير، والذين لم تسـحقـهم سنوات الشدة مـلأهم الأمل ولهـجوا بالشكر لهـذه الرحمـة الإلهية. أمكن إعـادة بعض الآبار، المهجورة للعمل. كمـا أمكن إعادة زراعة مناطق عارية، بعـد أن أزيلت جذوعها العـارية للاستفادة منهـا كأخشاب أو وقـود بأشجار النخيل الصغيـرة، ووجدت الماشية، فوق كل هذا طعاماً كافـياً في المراعي المتجددة. كان هنالك حـزن غريب في رضـاء الناس. فطالما عرفوا اليـأس، فبالكـاد يتطلعون للأمل، كجمالنا التي عافت الماء بعد فترة ظمأ طويلة في الربع الخالي.

وفي صباح يوم مغادرتنا، تجمع الفقـراء، ومعظمهم من النسوة في ملابسهن القرمزية الفضـفاضة، وأقنعتهن السوداء، وعباءاتهن النجـدية، حول المعسكر طلباً للصدقـات. يقدر عددهن بالمئـتين على الأقل. كنت قد استـبدلت بعض ريالات الماريا تريزا، بالعـملة التركيـة المحلية التي لا تزال حـية من فئـة النصف والربع.

وكانت كل امرأة سعيدة بما تلقته من مبلغ زهيد وقع في يدها. وعاد البعض منهن مرة أخرى على أمل أنهن لن يُعرفن، ولم يتضجرن عند نفاد النقود. كما استطعت أن أتنبه إلى خدمات بعض الصبية الذين دعوتهم لصيد الطيور لي بوساطة شراكهم. لقد أحضروا لي الطيور حية، ولكن أحد الأجنحة كان مشوهاً جداً ليمنع طيرانها.

احتفى بنا أمير قرية «آل محمد» أثناء إقامتنا، واسمه فرحان الروية، الذي يتمتع بسلطة رسمية متساهلة على كل الواحة. كما قمنا أيضاً بزيارة سالم بن عبدالله بن نادر بقرية «آل حنيش» والذي كان أخوه «نادر» حينها في مكة في خدمة الأمير فيصل. لقد تجولت في مزارع النخيل اليانعة وحديقة يملكها عيسى الخبيزي، وزرت أيضاً أجزاء أخرى من الواحة «مثل قرية آل سويلم» التابعة لمقابل، وقرية آل ضويان. كان الحديث في كل مكان هو نفسه: لقد أصابت مصايد اللؤلؤ في الخليج العربي ظروف صعبة، وتدنت دخول ممثلي السليل لدى الحكومة من متوسط مئة ريال للرجل إلى ستين ريالاً. ومع ذلك، فإن كل الذكور يذهبون للبحر كل عام، تاركين العدد الضروري فقط من الأيدي العاملة التي تشرف على ري مزارع النخيل. تحتوي مزارع النخيل صنفين ممتازين من البلح: المقفزي الذي يجنى خلال أشهر الصيف والسري ذي الثمار اللذيذة[١]، الذي يظل على أشجار النخيل عبر أشهر الشتاء، ويقتطف متى أريد[٢]. كان السكان، بالطبع

(١) المقفزي والسري: نوعان من أنواع التمور التي كانت ولا زالت تشتهر بها منطقة وادي الدواسر (ابن جريس).

(٢) في العادة أن التمر لا يبق على شجر النخيل، وإنما يقطف قبل أن يتلف ويوضع في أماكن مخصصة لحفظه من التلف، وغالباً يسمى المكان الذي يخزن به (الجصة). (ابن جريس).

من البدو، أو أشباه البدو، يزيد عددهم عن ألفي نسمة، ولا تزيد قوة حامية الواحة عن عشرين جملاً براكبيها وذلك في حالة الاستنفار العام، وكان بعض رجال الحامية في هذا الوقت غائبين في خدمة فعلية، في حملة خالد بن لؤي الاستطلاعية، في منطقة نجران، حيث وصلت أخبار إلى السليل بانتصار باهر على عناصر السلوم والهندي[١] وغيرهما في ذلك الجزء. استسلم المتمردون الذين كانت إصاباتهم كثيفة نسبياً، بعد المعركة، وتم توقيع الاتفاقية.

قمنا بوداع مضيفنا صباح اليوم السادس عشر من مارس، وامتطينا ظهور مركبنا لنواصل رحلتنا. استغرق عبورنا لمزارع النخيل، على زاوية مائلة، حوالي ربع الساعة عبر ممر ملتو يمر من أمام قلعة قصر البيِّنة بجوار حديقة تسمى الصفية. تطلعنا إلى حوض وادي الدواسر الطويل الضحل، وذلك من حافة مزارع النخيل، ناحية الأفق الغربي، حيث تقع المرتفعات الحارسة لكل من خشم العُمور، وخشم أشقر[٢]، على جانبي المدخل الذي يؤدي إلى جبال طويق. كان السهل العريض، المملوء بنبات الحرمل من أمامنا، هو دلتا قناة المجامع حيث تبدأ دخولها بالوادي الذي يسمى هنا بـ «الفرشه» وهو ممر ثقيل تتناثر فيه شجيرات الشنان، واقفة على قواعدها الرملية. كان اتجاهنا العام هو ناحية الجنوب الغربي بميل عبر الوادي. عبرنا ممر المفرش، ودخلنا الخط الرئيس للمجرى، وهو قاع طيني كثيف الأشجار، عليه أشجار الأثل، أو السَوَّاد، ويعرف باسم العفجة. ضربنا مسيرتنا على هذا الطريق، لنصل إلى السفوح الجنوبية لطويق، على الجانب الأيمن للوادي، ثم عبرنا

(١) السلوم والهندي: عشائر يامية من منطقة نجران، ولهم وقائع وحروب قبلية مع سكان وادي الدواسر. (ابن جريس).

(٢) خشم العُمور وخشم أشقر: جبلان متقابلان يقع الأول غرب مدينة السليل والآخر في شمال غربها. (ابن جريس).

من هنا، على أحد ضفتي رافد مهم هو شعيب القبر، فوق مساحة كبيرة من الخرائب: جدران، حصون دائرية، وحطام منازل، التي يبدو أنها غير جديرة بأن نقف عندها لفحصها. ومع هذا فقد توقفنا لمدة قصيرة بسبب حائط من الصخور في الرافد الثاني غرباً، وهو شعيب جراف[١]، حيث كوفئ البحث بالعثور على حفريات تعود إلى العصر الجوراسي[٢]، شبيهة بتلك التي عثرت عليها في هضبة طويق على بعد حوالي (٤٠٠) كيلومتر إلى الشمال.

تنتشر أمامنا الآن منطقة الخثيقان[٣] المبعثرة التي تتكون من أربع أو خمس قرى صغيرة، إلى جانب قصور قليلة منعزلة، ومزارع نخيل متوزعة بين صخرة طويق على يسارنا وغابات العفجة الداكنة الاخضرار إلى اليمين. توقفنا هنيهة لسقي الجمال من بركة تحيط بشجرة نخيل واحدة، في إحدى المزارع، حيث كان يعمل عدد من الرجال. ينتمي أهل هذا الجزء من الوادي إلى مجموعة أبات دواسر، تدعى بني تغلب، والتي تضم الأقسام التالية: العُمور، والخيلات، والحقبان، والمشاوية، والمصارير. لقد تضرروا، كما تضرر أهل السليل، من فترة جفاف طويلة، وكانت بعض مزارع نخيلهم في حالة سيئة، ولكن يبدو أنهم يتطلعون إلى محصول ذرة أصفر واعد، نتيجة للأمطار الحديثة. تنتهي الواحة بالقرب من الجانب الأيمن لشعيب العُمور، الذي يدخل هنا عبر خليج عميق يمتد إلى الوراء داخل جدار جبل طويق، لم نهتم بزيارة المنطقتين المهمتين الأخريين: تمرة وشرا، فقد زرتهما من قبل في رحلتي السابقة. توقفنا، بالفعل، عند البئر

(١) جراف وليس جرب (كما ذكر فيلبي)، ويقع جنوب فرشه السليل. (ابن جريس).

(٢) العصر الجوراسي: يطلق هذا المصطلح على فترة زمنية معينة مرت بها الكرة الأرضية، وخلال هذا العصر غطت المياه معظم قارات آسيا وأوربا وأمريكا. (ابن جريس).

(٣) الخثيقان: منطقة تقع غرب مدينة السليل، وتعرف حالياً بـ (خيران). (ابن جريس).

الجميل المسمى عين المليحة، ذي الصهريج مربع الأبعاد، حيث يمتد كل ضلع إلى عشرين قدماً، وهو مبطن بمواد البناء إلى حدود خمسة أقدام من مستوى الماء، الذي كان عند عمق (٣٠) قدماً. يبدو -ولسبب ما- أن هذا البئر كان معطلاً، برغم أن كتلة صخور زرقاء، تم كشفها عن طريق الحفر، من أعماقه، قد أوضحت أن بعض الجهود قد بذلت لإعادته للعمل. كان هنالك على أية حال، صهريج آخر. ليس بالبعيد، يستخدم لري أرض زراعية معقولة الحجم، لنبات الذرة الأصفر.

قررنا، بعد عشر دقائق أن نعسكر الليلة تحت صخرة خشم العُمور في فجوة طويق، بعد أن قطعنا مسافة (١٣) ميلاً من السليل. وتسلقت بسرعة إلى القمة، لأرى منظراً شاملاً للريف المجاور، ويقف تحت أقدامي، في الفجوة، امتداد النخيل الضخم، التابع للقبابنة بأجزائه اللامعة البيضاء بسبب تربته الملحية. اندمجت أشجار النخيل على الجانب الغربي، مع غابات الأثل، وفيما عدا وجود عدد قليل من القرى المتهدمة تبدو الواحة كأنها بلا سكان. تمتد قمم طويق الجامدة باتجاه الشمال الغربي والجنوب الغربي إلى ناحية الأفق البعيد المظلم، مكوِّنة قوساً ضحلاً، ويوجد منفذ القبابنة في وسطه. تقع منطقة الخثيقان إلى الشرق، وتقع منطقة العُمور شيئاً ما نحو الجنوب الشرقي. وعلى سطح المنحدر من أعلاه إلى أسفله، تنتشر البقايا الأحفورية (بقايا العصور الجيولوجية القديمة).

هطل مطر غزير، وخلال وقت قصير مباشرة بعد عودتي للمعسكر، سرعان ما صفا الجو، وحوالي الساعة التاسعة مساءً استطعت أن أقوم بملاحظة النجوم، قبل أن تتجمع السحب مرة أخرى من جديد، وعند منتصف الليل، غطَّت سحب

كثيفة السماء ولمع برق بعيد من جهة الشرق، ولكننا لم نمطر، وكان الليل لطيفاً، جذبت نار معسكرنا مسافراً قادماً من وادي الدواسر متجهاً للسليل. أخبرنا هذا المسافر أنه منذ ثلاثة أو أربعة أيام خلت وصلت تعليمات للأمير من الملك، مفادها أن يتوقع وصولنا خلالها، علماً بأن الأمير نفسه، لم يؤكد هذه الشائعة حينما وصلنا إليه بعد يومين. لقد أفادنا في السليل بعض صائدي اللؤلؤ الذين عبروا منطقة الهفوف قبل حوالي ثلاثة أسابيع في رحلة عودتهم؛ أن هواجس نذر الشر حول مصيرنا كانت دائرة هناك.

صحونا في اليوم التالي والسماء صافية من فوقنا، عدا سحب قليلة خفيفة، كان الصبح دافئاً مع بعض الحرارة والرطوبة، برغم النسيم الرقيق الذي يهب من جهة الشرق. امتطينا الدواب عند تمام الساعة الثامنة صباحاً، مسافرين في اتجاه يقع قليلاً تجاه الجنوب الغربي على امتداد منحدرات طويق، والتي كانت قواعدها من الحجر الرملي ذي اللون البني الغامق، وتعلوها شرائط باهتة من طبقات الصخور الجيرية. على يميننا، ومن خلف نخيل القبابنة ملأت غابات الأثل حوض الوادي، بينما واصلنا مسيرتنا عبر سهل غني بنباتات الشنان، يقع بين المنحدرات الصخرية والوادي، ثم مررنا بعد مسافة قصيرة بالقرب من كتلتين صخريتين منفصلتين نحتتهما الرياح على هيئة أُسُود مستريحة[١]. وفيما يلي هذه وعندما بدأت الصخور تتجه نحو الجنوب، بدأنا بالتدريج نسلك طريقنا باتجاه الغرب، فوق السهل الملحي المنقط بلطخات من الرمل الخشن[٢].

(١) وتسمى هاتين الكتلتين حالياً بـ (الرحيلين). (ابن جريس).

(٢) وتعرف هذه المنطقة حالياً باسم (الكواكب). (ابن جريس).

ظهر نخيل كمدة حوالي الساعة العاشرة صباحاً حينما توقفنا لتناول الإفطار. كان مقرراً عليَّ أن أقضي ليلة أخرى هنا كما فعلت قبل أربع عشرة سنة. ولكننا واصلنا مسيرتنا على عجل واختلطت أشجار الشنان والأثل بالغضى فوق كثبان الرمال. وما هي إلاَّ مدة زمنية محدودة حتى تحوَّل كل ذلك إلى غابة، وأصبحت أمواج الرمال أكثر وضوحاً. وعند الظهر، ومع عودة التوعكات المعوية التي أعلنت عن نفسها في السليل، كنت مستعداً للتوقف مرة أخرى. نمتُ سريعاً تحت الظل الوافر لشجرة غضى، وصحوت عند الساعة الثانية ظهراً لهطول مطر مفاجئ. وظل كل شيء لطيفاً بعد ذلك مع أمطار متقطعة، وعند الساعة الخامسة أحسست بأنني قد استعدت نشاطي بما فيه الكفاية لأواصل المسيرة.

زحفنا بعد ساعة إلى مجموعة من أشجار أثل كمدة؛ لنعسكر بالقرب من القرية. قد أدينا عملاً أفضل قليلاً من عملنا في اليوم السابق، ولكن الظروف كانت كلها ضدّنا، احتفى بنا الأمير المحلي: فارس بن راجس، والذي يناديه أبناؤه بـ «الرجل المسن»[١]، برغم أنه في منتصف العمر وقد بالغ في إكرامنا، وكنت سعيداً مدة بقائي تحت حمايته. إن أعظم إنتاج لكمدة هو نبات «الكرمع»[٢] أو

(١) دعوة الرجل وهو لازال في منتصف العمر بـ (الرجل المسن) أو (الشائب) أو (القحم) أو (أم قحم) عادة منتشرة عند كثير من الناس في شبه الجزيرة العربية، وبخاصة في جنوبها، وهذا أمر ليس فيه تجريح أو احتقار أو ما شابه ذلك، وإنما اعتاد بعض الناس أن يطلقوا مثل هذه العبارات على الوالد أو العم أو غيرهما، وبخاصة بعد ظهور الشيب عليهم، وبعد أن صار لهم أولاد وبنات وربما أحفاد. (ابن جريس).

(٢) ويسمى هذا النبات الكرمع، وهو نوع من الثمر الذي يطرحه شجر الأثل، ولونه وردي، ويستخدم في دباغة الجلود. مقابله مع مبارك الدوسري، أحد طلاب الدراسات العليا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد. (ابن جريس).

«توت الأثل» إذ يكثر الطلب عليه كمادة صابغة. ولكنه أصبح لعدد من السنوات المتتالية، فاشلاً كلياً أو جزئياً، ربما بسبب الجفاف. كما يُزرع هنا الشعير والشوفان معاً، ويصنع الخبز المحلي من خليط منهما معاً. القرية نفسها صغيرة، ولكنها مدمرة ومحاطة بسور، مع وجود برج مراقبة على الجانب الجنوبي الغربي. ولا يزيد عدد السكان عن مئة نسمة ولديهم عدد كبير من الآبار التي يكون الماء فيها غزيراً على عمق عشرين قدماً، وهي أكثر ما تكون حفراً واسعة الفوهات أكثر منها آباراً. مع غياب أية دلائل بناء في هذه الحفر. توجد مبانٍ قليلة إلى جانب القرية في مزارع الأثل المبعثرة، والتي تغطي مساحة واسعة. أما مزارع النخيل التي كانت واسعة الانتشار نسبياً في السابق؛ فهي في حالة يرثى لها. ويؤرخ برج مراقبة محطم على الجانب البعيد من الواحة لفترة مجاعة طويلة، لم تترك شيئاً يأخذه الأعداء. وخلف هذا البرج يقع مستنقع مياه أمطار يبدو كأنه يحيي الأمل لحدوث أشياء أفضل في المستقبل.

بيننا الآن وبين طريق وادي المنطقة الحقيقي سهل رملي عظيم، كأنه بحر متلاطم الأمواج، مطرز بأشجار الغضى، وتعترضه على مسافات متباعدة منخفضات ضحلة من الصخر الرملي. وتندمج تخوم طويق عند الجنوب البعيد في الأفق، مع آبار القرية[1] تختفي خلف أحد المرتفعات على مسافة رحلة يوم. يبرز أمامنا شريط نحيل طويل أسود من النخيل وأشجار الأراك الذي تستخدم أغصانه الحادة المذاق سواكاً لنظافة الأسنان عبر شبه الجزيرة العربية[2].

(١) زرتها سنة ١٩٤٨م. (المؤلف).

(٢) تؤخذ الأسوكة من جذور شجر الأراك وليس من أغصانها. (ابن جريس).

اقتربنا، في بطء، من ضواحي الواحة، وعبرنا مزارع محطمة ذات نخيل وأثل غير متناسق، ووصلنا إلى أولى القرى، وهي قرية الشرافاء التي سبق لي أن تحاشيتها في رحلتي الأولى[١]، حيث تجمع مواطنو الوادي آنذاك لمنع تدنيسها بواسطة كافر[٢]، غير أننا عبرنا الواحة المعوجة للقرية هذه المرة، لأن خبر حضورنا لم يكن معلناً، وكانت القرية محطمة تنتشر فيها قطع صغيرة من مزارع الشوفان. واصلنا السير بعدها، وسط القرى، مع وجود الزخم الرئيس لمزارع النخيل على يميننا بعيداً قليلاً من الطريق، تحت كثبان الرمال التي كانت تنتظم على الجانب الأيسر للوادي. تبلغ المسافة من قرية الشرافاء إلى قرية اللدام، المستوطنة الرئيسة، حوالي ستة أميال. وقد قطعناها بلا حوادث تذكر لنتوقف عند قلعة برزان، حيث يقيم الحاكم.

كان اليوم يوم جمعة وقد انتهت صلاة الجمعة قبل قليل. وكان سعد بن ناصر ابن معمر – وهو سليل بيت إمارة جاء منه ذات يوم العديد من أمراء المناطق تحت قيادة ابن سعود – يشرف على مجلس محكمته الأسبوعي العادي. جلس وبجواره

(١) الشرافاء: هذه القرية بداية حواضر وادي الدواسر من الجهة الشرقية للقادم من جهة الرياض. (ابن جريس).

(٢) وهذا التصرف من قبل سكان هذه البلاد، وعدم رغبتهم أن ينزل بلادهم رجل كافر يدل على كرههم للكفار وعلى معرفتهم أنهم يدنسون أي موطن ينزلون به، وهذا الإحساس لم يكن عند سكان بلاد الدواسر فحسب وإنما ظاهرة قد تكون عند كثير من سكان شبه الجزيرة العربية، وفيلبي وغيره من المستشرقين يعرفون ذلك ويدركونه، حتى إن بعضهم أعلن إسلامه صورياً من أجل دخول بعض المناطق في شبه الجزيرة العربية مثل: مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرهما، وذلك بهدف الاطلاع والدراسة لبعض الأمور التي جاؤوا من أجلها وأعلنوا إسلامهم كذباً لتحقيق أهدافهم ومقاصدهم.
للمزيد من الاطلاع انظر: روبن بدول. **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**. ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص٢٣ وما بعدها، جاكلين بيرن. **اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم**، ترجمة قدري قلعجي (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت) ص ١٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

كبير العلماء: سعد بن عتيق. وانتظم من حول المجلس كل الأعيان في قريتي اللدام ومشرف، لقد استقبلنا الحاكم الذي تولى مهام الوظيفة منذ حوالي ستة أشهر بكرم كاف. لا نعرف إن كان يعلم أولاً بوصولنا إلى السليل، فقد تركنا نحس بأن ظهورنا في المنطقة، لم يكن متوقعاً. فقد سألنا أثناء ما كانت فناجين القهوة والشاي تدور، عن كيفية تمكننا من النجاة من مخاطر الربع الخالي التي أدى فيها خاله إبراهيم بن معمرّ دوراً رئيساً في تنظيم رحلتنا من البداية في الهفوف وكان معنا تابعه الأمين سعدان الذي يعرفه الأمير؛ ولذلك كان من الضروري أن يكون صديقاً لنا، ولكنه كان رجلاً ذا شخصية متضجرة. يبدو لنا وكأن سحابة باردة قد حلّقت فوق سماء المجلس، والحقيقة السائدة تبدو واضحة في حبل الصمت من جانب كبير المشايخ. لقد تقلد سعد بن عتيق الوظيفة نفسها هنا عام ١٩١٨م حينها لم أقابله شخصياً ولكني أحسست بالقوة الكاملة لعدم قبوله التي من الممكن العفو عنها. ومن ذلك الحين يبدو وكأنه لم يتعلم شيئاً ولم ينس شيئاً. لقد زال الضغط الذي جثم علينا لحظة انسحابه، ثم تبع بقية الأعيان المحليون خطاه. وبعدها أمر الأمير بطعام وافر لضيوفه فقد أحضروا لنا التمر مع قحفة الحساء، لوقف ضربات الجوع، إلى حين إعداد العشاء، الذي دعينا إليه عند الساعة (٤,٣٠) لقد تم إحضار طبقين كبيرين من لحم الضأن والأرز ووضعا على الأرض كان أحدهما لفريقي وكان الآخر للأمير وتابعيه.

شاورني الأمير، في هذه الأثناء في الخيار بين السكنى داخل القلعة، أو في خيام خارج الباب الرئيس. وقد اخترت الخيام للحرية الكبيرة التي سأنعم بها وسرعان ما أقيم معسكرنا هناك. تمكنّا من الإحساس بالراحة نسبياً، برغم تتابع

الأمطار من حين لآخر وهبوب العاصفة الرملية الحادة السريعة في فترة ما بعد الظهر. وقد آثرت التحفظ وتأجيل متابعة ملاحظاتي للنجوم إلى ما بعد منتصف الليل حتى لا يكون هنالك مَنْ يتشكك في أفعالي.

تجولت بحرية في اليوم التالي بمفردي بلا مضايقات من أحد. لقد جذبت انتباهي هضبة صغيرة منعزلة[1]، في وسط الوادي، مقابل مشَرفَ. كان ارتفاعها حوالي خمسين قدماً، مكوّنة من طبقات من صخر رملي أحمر مصفر تخفيها طبقة طمي، (سلت) وحصى تساقطت من الأعلى كان سمكها حوالي (٢٥) قدماً وتضطجع في استرخاء فوق الحجر الرملي. إلى جانب حجارة خشنة وضعت في قالب طموي وردي طري، مع وجود كتل كبيرة من الصخر في حجم ضعف رأس الإنسان. لقد سقط العديد من الحجارة، بفعل الرياح والأمطار، من الواجهة الخارجية لهذا الطابق العلوي، مخلفةً سجل وجودها فيما خلّفته من قالب كلسي. كما توجد مياه في بئر قرب ناحية الزاوية الشمالية لقرية مشرف، وذلك عند عمق أربعين قدماً، والبئر مبطنة ببناء من حجارة رملية حتى عمق خمسة عشر قدماً، وبعدها يخترق البئر الصخر الرملي الوردي الصلد. تقع إلى الجنوب من مشرف بركة لمياه الأمطار، بينما إلى الغرب من قرية اللدام التي ليس لها سور ولا بوابة من هذه الناحية توجد بحيرة منتظمة. كما تحتل المقبرة المسافة الواقعة بين المدينتين التي تخترقها عدد من مسايل المياه تنتهي كلها عند هذه البحيرة التي لا يستعمل ماؤها للشرب.

(١) تقع هذه الهضبة في شمال غرب قصر مشرف بوادي الدواسر وتعرف حالياً باسم (القاري). (ابن جريس).

لقد قمت بزيارة سوق مشرف قبل قفولي عائداً للمعسكر، والسوق عبارة عن مكان واسع نسبياً ومكشوف وتحيط به المتاجر المألوفة الشكل في القرى النجدية. لا يبدو أنها تعرض شيئاً يثير الاهتمام، غير أن النظرات الصامتة العابسة والنظرات المتجهمة للتجار والمتسوقين تفيد برفضهم وجود غريب في وسطهم. ظهر السر من جراء هذا حين عودتي للمعسكر، فقد أمضى القاضي سعد ليلته يرسم طرقاً ووسائل ليجعل من نفسه شخصاً غير موافق. ودعا أتباعه إلى مقاطعة معسكرنا. كان لهذا التصرف النتيجة السعيدة غير المتوقعة ألا وهي حجز الجمهور الفقير بعيداً عنا، ولكن ذلك أصبح أمراً أكثر خطورة حينما أبلغني الكشافون التابعون لي بأن محاولاتهم للحصول على دليل كفء للمسيرة إلى بيشة قد تم تثبيطها بوساطة المنطقة نفسها. ذهبت إلى الحاكم الذي حمل على عاتقه فوراً تأمين أحد رجاله الخاصين لمرافقتنا، وحين عودتي إلى خيمتي سررت عند ما عرفت أن ابن معدي قد وجد وأحضر لي معه أحد رجال قبيلة قحطان ويدعى حسن، يزعم أن لديه الخبرة الضرورية عن البلاد التي ستقابلنا.

عرض الأمير -وفي كرم- أن يمدنا بكل احتياجاتنا التي نرغب، غير أننا كنا قد حصلنا على ما نريد من التجار المحليين الذين -عند امتناع أوَّلي للتعامل معنا- تأسفوا على نكران الذات. هذا؛ وتقدموا -بلا قليل من الطمع- لمساعدة الزوار غير المرغوب فيهم؛ للتخلص من بعض نقودهم! كنا قد أمّنا لأنفسنا ما يكفي من البن وقشور البن، الذي يصنع منه شراب شبيه بالشاي في كل أنحاء جنوب البلاد، من قرية السليل، السوق النجدي الرئيس لتجارة البن اليمني، ولكننا الآن وضعنا ضمن بنود حسابنا وفي مقدرة على مستوى متحرر جداً بعد حرماننا

الأخير، أرزاً ودقيقاً وسمناً، وتمراً وشاياً وتوابل مختلفة - قرنفل، وقرفة، وزنجبيل -. كما قمنا أيضاً بشراء أدوات المطبخ بدلاً عن تلك التي أرسلناها مع مجموعة الرياض من نايفة. كما استطعت حتى استبدال زجاج الساعة، وأن اشتري صندوقاً خشبياً لحفظ الأجهزة الجيولوجية وحفظ عينات أخرى يمكن جمعها أثناء الطريق.

لقد كان من حظنا بحق، أننا شغلنا أنفسنا تقريباً منذ قدومنا في جمع كل ما نحتاج إليه، ذلك لأنه، في صباح يوم (٢٠) مارس، حينما كنا على أهبة مواصلة مسيرتنا، أعلن التجار المحليون، بعد بيعهم لنا مسبقاً كل ما نحتاجه للرحلة، أنهم -وبتفاخر لا ضرورة له- لن يبيعوا لنا بعد الآن. لقد فكروا بلا شك، ملاطفة الضمائر غير المرتاحة، التي أمضت الليل تتأمل في إعجاب أداء يوم طيب، أو لعله لا أكثر، ربما إشارة استرضاء لمحرض دعا لمقاطعة غير ناجحة. على أية حال، كانت لدينا رغبة ضئيلة للبقاء بينهم مثلما كانت لهم الرغبة، لتعطيلنا. دعانا رجال الأمير إلى إفطار ممتاز من الرز والتمر، وبعدها قمنا بوداع مضيفينا الكرماء وامتطينا دوابنا للمرحلة التالية من رحلتنا.

مررنا بأطلال حويل[1] أثناء سقينا للجمال في طريقنا عند بئر مغيرة، حيث كما يقول دليلنا إن مجموعة من الباحثين قد اكتشفت كنزاً مخبئاً من النقود في السنة السابقة. توقفنا لبرهة عند بركة مياه أمطار تقع بين بلدتي آل معني وآل عويمر لملء قرب الماء وسرعان ما أحاط بنا جمهور من أناس مسالمين فضوليين من بينهم

(١) حويل: هضبة صغيرة تقع حالياً جنوب إدارة التعليم بوادي الدواسر. (ابن جريس).

عدد من السيدات الجميلات الجريئات إلى جانب مجموعة أطفال مزعجين. صعد إلى وسط هذا المسرح سريعاً جندي سابق في الجيش النجدي، عاد لتوه من فترة خدمة في جدة، حيث لم يكن فقط معتاداً على رؤية الأوروبيين بل سبق له معرفتي شخصياً. كان من الواضح أنه فرح باللقاء الثاني بيننا وقام زملاؤه القرويون، لتخفيف فظاظة المدن الكبيرة، بتوديعنا وداعاً عاطفياً من أطراف الوادي. كانت آخر مستوطناتها، الفرعة إلى يميننا، حين دخلنا سهل حزم الطيني، الحصوي، الواسع، متجهين ناحية الروابي المبعثرة التابعة لبني مصيقرة وبني سرَّان.

تسمى الصحراء من هنا، وإلى وادي بيشة، «المهمل» تمتد طريقنا فوق أرضية حجرية من فتات صخر رملي تتخلله على مراحل خطوط أو تجمعات رملية، تنمو عليها بعض من شجيرات وحشائش صحراوية مثل النصي والعلقاء خاصة في الدروب الرملية، كما ينمو الرمث والعرار في ترب أخرى مع مشاهدة الضب، مستلقية في حرارة شمس ما بعد الظهر، وانطلاقة أرنبة برية من شجرة، يلاحقها -بلا فائدة- كلبان من كلابنا السلوقية، أحد هذين الكلبين «عقفاء» جاء معنا من الربع الخالي، بينما انجذب الآخر، وهي كلبة بيضاء جميلة، في بلدة اللدام، وصل كلاهما إلى مكة معنا، ولكن الظروف المتغيرة هناك لم تناسب أياً منهما. مات «قطنة» العام التالي خلال غيابي في انجلترا لقضاء الصيف، بينما جذبت «عقفاء» زوجاً جميلاً من جنسها لتكون إقامته معي، ووضعت ستة جراءٍ جميلة، أطلقت عليها أسماء مختلفة لآبار الربع الخالي، قبل توزيعها على أصدقاء مختلفين في جدة. ماتت عقفاء عام ١٩٣٥م، أثناء غيابي بعد إجهاض بدا أنه مفاجئ وحطم صحتها تماماً. وحاول زوجها ضبيان، عزاء نفسه، بعد أن سلبه الموت زوجه، بالخروج في استكشافات ليلية ذات طبيعة كريهة إلى أن التقط عن

قصد قطعة من لحم معالجة، بمادة الاسترخنين ومات، وبعد سلسلة من التشنجات العنيفة في وجودي. إنه ليس من الأشياء الحسنة الاحتفاظ بكلاب الصيد في المناطق الحضرية، لأنها لن تكون أبداً سعيدة وستعتاد على اكتساب عادات سيئة مثل البحث عن الطعام.

انجرف مجرى الوادي، تدريجياً، عن مسار طريقنا ناحية الغرب، ومن خلفه رمال نفود الدحي[١]، المرصع بالقمم وأحياناً بالمرتفعات والسلاسل الجبلية، ويمكن رؤية جبال الهضب خاصة، والتي قد رأيتها في عام ١٩١٧م، من ناحية الشمال وعلى فترات ومن على بعد، ربما تكون من حجارة رملية حمراء، كما قال دليلنا، الذي يعرفها جيداً، لأنه خدم خلال الحرب العظمى في العلا، على خط سكك حديد الحجاز، فهي في مظهرها العام شبيهة جداً بالصخور، أو الجروف في ذلك المكان، ومثلها، فإنها ممتلئة بالكهوف. ولم يقترح أن هذه الكهوف قد أقيمت بفعل إنساني. كان المنظر الهندسي متموجاً قليلاً على اليسار، وهو عبارة عن خلاء صخري، مع وجود مرتفعات منخفضة من حين لآخر وهضبات مرتفعة. كان وقت ما بعد الظهر ساخناً كما يتمناه المرء، وكانت العلامة الوحيدة الأخرى، في ذلك الخلاء لوجود إنسان خلال مسيرتنا، هي رؤية مجموعة من تسع جمال، أمامنا، جاهدة نحو الغرب، يظن حسن أنهم قد يكونون أصدقاءه العائدين إلى تثليث، ولكننا لم نتحقق من تعريفه لهم لأننا توقفنا عند الساعة الخامسة مساءً في حمى شجرات سمر، على مسافة أقصر قليلاً من موقع العلامة المميزة لبلدة أبرق المقاريب[٢]، بينما تكون الفرقة الأخرى قد واصلت سيرها خلال الليل البارد.

---

(١) نفوذ الدحي: منطقة تقع شمال وادي الدواسر بحوالي (٢٠٠) كم تقريباً. (ابن جريس).

(٢) وهذه البلدة تقع جنوب غرب وادي الدواسر. (ابن جريس).

تتبع قبيلة قحطان جنوب بيشة، أميرها مترك بن عشق بن شفلوت الذي تتمركز رئاسته في منطقة تثليث. كان فيصل بن حشر من أشجع الفرسان القدماء في شمال قحطان في هذا الوقت، وقد كان لمدة طويلة من المساندين الأساسين، والأصدقاء الشخصين للملك. والذي مات -لأسف الملك الشديد- أثناء قيامنا بهذه الرحلة. ورث ابنه خالد -وهو شاب لطيف، وعلى وجهه ندوب الجدري، وله أنف معتدل بارز- كل الألقاب التي كانت لأبيه وانضم إلى رجالات الحاشية. بدأ النفوذ لرؤساء القبيلة المؤثرين يتضاءل بسرعة خلال هذه الأيام كلما امتدت إدارات الحكومة المركزية لتغطي كل الدولة.

صحونا مبكراً قبل فوات الأوان بعد قضاء ليلة باردة بالمعسكر، انخفضت فيها درجة الحرارة إلى (٥٥) درجة فهرنهايت، وتحركنا قبل الساعة السادسة صباحاً ونحن نسير على مسافة قصيرة وقمت راجلاً بقطع المسافة القصيرة التي تفصلنا عن سلسلة أبرق المقاريب المنخفضة. شاهدنا على الطريق آثار ذئب كان يدور حول المعسكر أثناء نومنا. جلست على ركام من الحجارة على القمة الجنوبية أطيل النظر لمنظر الخلاء الصخري وإلى الكثبان الرملية للصحراء، وإلى الجبال المحترقة حولنا، في باكورة صباح أول يوم بارد صافٍ من أيام الربيع (٢١ مارس)، تهب خلاله نسائم شرقية. يبعدنا هذا الموقع حوالي (١٩) ميلاً من منطقة وادي الدواسر التي -بالطبع- لا نرى منها شيئاً. برزت على البعد، من ناحية الشمال الغربي كتلة جبال الهضيب، معلّمة الموقع الأول لحوض حجلة المختمية[1] العظيم الذي تصب

(١) حجلة المختمية تسمى أيضاً (هجلة المختمية) وهي تقع في الجهة الغربية لوادي الدواسر. (مقابلة مع مبارك محمد الدوسري، طالب الدراسات العليا في قسم التاريخ، جامعة الملك خالد) (ابن جريس).

فيه أودية عظيمة مثل تثليث، وبيشة، ورنية، كل مياه سيولها متى وجد فيها ما تصبه من الماء. يمتد من ذلك الموقع ناحية الشرق نفود الدحي الواسع، إلى الشمال من وادي الدواسر. وتشمخ من هنالك إلى نقطة الشمال، كأنها ناهضة من خلاء رملي، كل من السلسلة الضخمة للسوادة، وهضبة الدواسر الجمبة. وإلى الخلف، وشمال الجمبة برزت كتلة العُبيد السوداء وعلى يمينها جبل صبيحاء بينما شمخت هضبتا مريكيز السوداوان كحارسين في وسط كثبان برسع الرملية في خلاء الدحي.

يقع ناحية الشرق ذلك السهل المنبسط الذي عبرناه بالأمس، بينما اكتظ الوتر الممتد من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربي بخليط من تلال صخرية وهضاب بني مصيقرة، مرتبة في خطوط ثلاثة من جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، تبدأ على بعد حوالي ميل واحد وتتجه نحو البعيد مع أرض مرتفعة بعض الشيء ناحية الجنوب الغربي من موقعنا، كما ظهرت أجزاء من جبل جويل بعيداً إلى الخلف، ناحية الجنوب، وتقع إلى الخلف من بني مصيقرة، ويلي ذلك، إلى الجنوب والجنوب الغربي، تل المسماة المزدوج مع وجود ركام من حجارة على قمته تتجه إلى أسفل، حيث السهل الرملي العريض الذي يحمل الاسم نفسه، والذي يصرف كل مياه هذا الجزء من ممر المحمل ناحية الجنوب الشرقي، حيث ممر الفاو الذي يخترق جبال جنوب طويق. وتخترق سلسلة بني سنامة من هذه النقطة إلى الجنوب الغربي، مع وجود جبل أم خرق[1] الذي يمتد في وسطها من جانب إلى آخر، بواسطة سمة كهفية مدهشة، اشتق منها اسمها، وأخيراً يعترض طريق

(١) أم خرق: جبل يقع بالقرب من سلسلة جبال بني سنامة بوادي الدواسر. (ابن جريس).

تقدمنا، وفي اتجاه غربي، توأم جبل الجزلاء الذي يسمى أحدهما «البيضاء»، والآخر «السوداء»[١].

امتطينا، أنا وحسن، دوابنا مع بقية الفرقة، بعد هبوطنا من الركام إلى السهل على الجانب البعيد لأبرق المقاريب. نواصل مسيرتنا فوق سهل رملي من صخور رملية حمراء إلى جانب مساحات رملية مبعثرة، ينمو فوقها قليل من عشب الثمام وبعض شجيرات من الرمث، وتحلق فوقها أعداد كبيرة من فراشات الكبريت، وفراشة السيدة الملونة. وامتد أمامنا بعد فترة شريط كوارتزي، من مجموعات من الحجارة الرملية الصعبة، ثم اخترقنا على بعد ستة أميال من أبرق المقاريب مجرى الموسامه الواسع الرملي، لندخل المنحدرات السهلة ولكنها وعرة بالنسبة لأرض الجزلاء.

سرعان ما توقفنا، بعد ذلك، عند مجموعة من أشجار الطلح لتناول الطعام، تكوَّنت وجبتنا من تمر وخبز، تم طبخها بغير عناية في رمل ورماد[٢]، مع قهوة وشاي ومشروب القشر اللذيذ الذي يعمل من قشور البن، مع نكهة الزنجبيل أو القرفة. خلدنا للراحة لفترة وجيزة تحت ظلال شجرة السمر. كان الجزلاء منطقة منخفضة، متموجة، ذات قمم سود من صخور تشبه الإردواز، مترتبة على حافاتها إلى أعلى، مع منخفضات متكررة. يوجد بئر غزالة[٣] -كما أشار حسن-

(١) جبل الجزلاء، يبعد حوالي (٦٠) كم غرب جبال بني سنامة ببلاد الدواسر. (مقابلة مع مبارك الدوسري) (ابن جريس).

(٢) وهو ما يعرف بقرص الرماد أو بالقرص فقط، وأحياناً يطلق على هذا النوع من الطعام خبز (الملة). (ابن جريس).

(٣) تقع هذه البئر على حدود قبيلة الدواسر مع سبيع من جهة الغرب، وتسمى حالياً (الشقيب). (ابن جريس).

بعيداً ناحيـة الجنوب الغربي، حفره منذ القديم، رجال قـبيلة الدواسر، وذلك عند الحدود الجنوبية لسلسلة الجزلاء ولكن تعـرض للتخريب بعد ذلك بواسطة لسلوم. ونضب هذا البـئر منذ ذلك الحين بمياهـه المالحة التي كانت -في أحـسن الظروف- توجد عنـد عمق أربع إلى خمس قـامات مـثل بئر جـرير الجنوبية الواقـعة خلف مرتفعات جبجب التي تقع ميـاهه المالحة على عمق ثماني أو تسع أقدام. لا توجد بئر أخرى في ممر المهـمل الذي لا يوجد فيه ماء الآن، فـهي أرض لا يملكها أحد من البشـر تقع داخل حدود الدواسـر، ولكنها مكشـوفة دوماً للسلـوم الذين يمتد نطاقهم من خلفها إلى نجران البعيدة.

يقال إن سلسلة جـبال بني سنامة -كمـا أشرنا من قبل- تشكل كتـلة واسعة تبدو ظاهرياً كأنها من حجارة رمليـة، وتمتد جهة الجنوب الغربي إلى جبل الكلاب ووادي شهمة أو الشهمة المرتة حيث يوجـد مرعى الحمض الجيد للبدو. توجد بئر مريغان قريباً من هذا الجبل، وعلى بعد مـسيرة يوم واحد (حوالي ٣٠ ميلاً ) إلى ناحيـة الجنوب الغربي، وتعـد هي وشهمـة نفسهـا، وجبال الكلاب، ومـا يحيط بهـما، جـزءاً من سلسلة جنـوب قحطان. تعـد بالمثل كل من سـنامة، وجـويل، وجزلاء، تابعة للدواسر، وتجرى الحدود بين القبيلتين من جبال الكلاب عبر وادي شحمة وعلى امتداد سلسلة جبجب التي نتوقع أن نصل إلى أجزائها الشمالية هذا اليوم.

اتجهت الرياح ناحيـة الجنوب، وكانت دائماً لطيفة مع زخـات عنيفة من حين لآخر، بينما كنا نـواصل مسيرتنا فوق هضـاب واضحة المعالم من جلامـيد سوداء تقود إلى سـهل تنمو عليه أشـجار السمر، مع تلال بـارزة على جانبنا الأيمن إلى مسافة معقولة. حل الحصـى الناعم المشوب بكوارتز سريعاً محل الصخر والرمل.

وتقع على يسارنا ناحية البعيد سلسلة جبال سنامة ويتجه كهفها ناحية الجنوب تقريباً، بينما كونت فجوة رملية تسمى الناصفة البقعة الوسطى لمسافة أربعة أميال إلى جنوب الجنوب الغربي. ويجرى الخط العام للجناح الشمالي، لكل السلسلة، من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي تقريباً. تحدثنا أثناء مسيرتنا، عن الجفاف الطويل الذي حل بأرض المهمل طيلة اثني عشر عاماً أو يزيد. لم تشهد هذه الأرض أمطاراً منذ ليلة السيل العظيم لعام ١٩١٧م، وحتى جاء عام ١٩٣١م وعام ١٩٣٢م عندما هطلت في وادي تثليث أمطار غزيرة. أشار حسن ناحية غرب الجنوب الغربي، وقال إنه توجد هناك أول مزرعة للبن في جبل حرملة في عسير، ولكن لا تزداد الأهمية إلى بعد التعمق جنوباً حيث جبل خولان وجبال وادعة إلى الشرق منه. كان التساؤل الذي يدور حول حقوق السيادة في هذا الوقت لتلك المقاطعة البعيدة، في مقدمة الأولويات السياسية في الجزيرة العربية، وقد فرض ابن سعود سياسة الأمر الواقع بتثبيت سلطته في نجران. ولكن خلال عامين فقط بعد ذلك، أثبتت اتفاقية الطائف (مايو ١٩٣٤م) مطلب السعوديين وأصبحت هذه المنطقة المنتجة للبن، داخل الحدود المتفق عليها للمملكة العربية السعودية.

دخلنا مرة أخرى أثناء سيرنا إلى منطقة ذات هضاب وتلال داكنة، أحاطت بنا من الجانب الأيمن، وقد انتشرت في أنحاء السطح المتوج للبلاد الذي تعترضه سلسلة منخفضة وقطع من صخور زرقاء مسودة، تكاد تكون بازلتية، علماً بأنها قد تكون، على أكثر الاحتمالات، صخور رملية متحوّلة. كانت هذه السلسلة تسمى البراعيم السود وكان سوادها لامعاً بدرجة كبيرة. كانت الحجارة في مواقع أخرى في لون الزيتون الأخضر المطفي، وقد نحتتها الرياح في نعومة في حجم وشكل أيدي الهاون. كانت بلاداً غريبة، ميتة ذات لمعان، فوق كل شيء يمكن أن

يقف في وجه الرياح المحملة بالرمال. لا يمكن رؤية أية كائنات حية أثناء حرارة النهار، ما عدا الفراشات، وفي مجموعات صغيرة حول الشجيرات والجنبات التي ممررنا بها. غير أنه توجد آثار هنا وهناك للظباء والحبارى. تسيل مياه كل هذه المنطقة إلى أسفل، ناحية الجنوب، إلى الجانب الشمالي من وادي بني سنامة الذي -على امتداده- يجري إلى وادي شعيب جبجب، ومنه إلى أسفل إلى وادي شهمة. ظهرت إلى يسارنا وعلى مسافة غير بعيدة، هضاب برقا القطف[1] وهي صخور داكنة، نصف مغطاة بالرمال المتحركة، وذلك أثناء اقترابنا من الجانب البعيد لجبل الجزلاء، وكان الطريق غير ملائم.

مررنا عبر سلسلة جبلية تلو الأخرى، ومع ظهور علامات باهتة لنباتات الربيع في المنخفضات التي بين هذه السلاسل، إلى أن نفدنا آخر الأمر إلى خارج الجزلاء، إلى حيث السهل العريض المسطح المنحدر في لطف ناحية منخفض شعيب جبجب يدعمه شريط تلال منخفض (بني جبجب) يعبر من الشمال إلى الجنوب. يقع رأس هذا الوادي بعيداً إلى الشمال، في بلاد المهمل في جوار جبل يفيخ البارز المزدوج الرأس، والذي بدا لنا إلى الشمال. توقفنا هنا برهة لأداء صلاة العصر، وأنعشنا أنفسنا بمياه أمطار ممتازة البرودة، وجدناها في بركة صخرية بواسطة أحد أفراد المجموعة.

كشفت سلسلة جبجب أنها ذات كثافة قليلة، وأن صخورها ذات لون أخضر عام، وهو المظهر الملحي الذي لوحظ في وقت مبكر من هذا اليوم. وجدنا أنفسنا

(١) برقا القطف: تقع جنوب غرب وادي الدواسر. (ابن جريس).

فجأة -ولدهشتي- في الحوض العريض الرملي لوادي تثليث نفسه، حيث قررنا أن نعسكر تلك الليلة. إنه بلا شك موقع يستحق الدراسة بعناية. وينهض إلى جوار معسكرنا على الجانب الأيمن للوادي رابية مناسبة لونها غريب إذ هو أخضر مسود، ترتفع إلى (٥٠) قدماً، تسمى أبرق تثليث. واصل زوج من العقبان وعدد من آكلات النحل - وقد شاهدنا هذه الأشياء أيضاً في وادي الدواسر - البحث عن الطعام برغم تطفلنا على خلوتها. وقبل ملاحظتي لجرادة منعزلة، كان حسن قد أخبرني أن مستوطنات تثليث قد هاجمتها أسراب الجراد في الخريف الماضي، علماً بأنه لم تظهر أية علامة للجراد بعد ذلك. كان عرض مجرى الوادي في هذه النقطة حوالي (٥٠٠) ياردة، وكان بطن الوادي ممتلئاً بالعديد من أصناف النباتات كان من أبرزها الغضى الرشيق، بينما كانت نباتات الحمض والعشرق والرمث في وفرة أيضاً. لقد غطينا الآن حوالي (٤٧) ميلاً، منذ أن غادرنا قرى وادي الدواسر.

إن وادي تثليث، الذي لم تطأه قدم أوروبي من قبل، هو واحد من أودية غرب شبه الجزيرة العربية العظيمة. وهو أقصى الأودية الجنوبية، التي تلتقي في حوض حجْلاَ - أو حجلة المختمية لإكسابها اسمها المحلي الكامل[1] -، أسفل مرتفع الهضيب البارز، لتكون وادي الدواسر. قيل إن هذا الحوض يمتد على مسيرة يوم واحد في اتجاه أسفل الوادي، من معسكرنا، أو أكثر قليلاً، لنقل حوالي (٣٠) ميلاً. ومن قمة تل أبرق يمتد الوادي بزاوية عشر درجات ناحية الشمال

(١) وكما أوردنا في حاشية (١) ص (٤٦) أنه يطلق عليها أحياناً (هجلة المختمية) بدلاً من (حجلة) وكلاهما صحيح؛ ولهذا فلن نعدل كلمة هجلة أو حجلة في الصفحات القادمة، وإنما نتركها حسب ورودها. (ابن جريس).

الشرقي لمسافة أربعة كيلومترات، ويستمر بعدها على انحراف (٢٠) درجة، ثم ناحية الشمال الشرقي، ويكون تل الهضيب على انحراف (٣٠) درجة إلى الشمال الشرقي من موقعنا. والغريب في أمر هذا المجرى أنه إلى مسافة قريبة من معسكرنا يخترق سلسلة تلال بني جبجب نفسها، ويشق طريقه مائلاً عبر الوادي نفسه الذي يصب جزؤه الشمالي عند هذه النقطة إلى تل يفيخ على البعد قليلاً ناحية الغرب من نقطة الشمال، بينما يجرى الجزء الجنوبي إلى شهمة، كما ذكر من قبل.

يبدو أسلوب التصريف معقداً بعض الشيء، عند هذه النقطة، وقد قال لنا حسن أن السهل وقبل السيل العظيم لعام ١٩١٧م، إلى الشمال من موقعنا -مكوناً من وادي تثليث وجبجب - كان في الحقيقة شبكة من كثبان رملية مغطاة بالرمث، وغطاء نباتي آخر، حتى جاء السيل وأزاحها كلها، وعلى أية حال، وكما شاهدنا، فهناك شريط طويل من غطاء نباتي يحدد خط وادي تثليث إلى عمق بعيد، بينما يظهر القسم الشمالي لمنخفض جبجب وكأنه لا شيء غير سهل عارٍ مسطح تظهر عليه بعض الروابي وقمتان عاليتان لبني ضلعان ناحية الشمال الشرقي، ومرتفع يفيخ الكبير ناحية شمال الشمال الغربي. تقع بئر مستجد في مجرى جبجب، على مسافة أربعين ميلاً، إلى شمال الشمال الغربي من معسكرنا بينما تقع بئر رديجة، على بعد حوالي عشرة كيلومتراً على المجرى نفسه. وتقع على مسافة عشرة كيلومترات، إلى الشمال الشرقي من رديجة، بئر هتيم في الجزء الشمالي من المهمل. بينما تقع بئر العرجان على بعد عشرة أميال إلى الشمال من بئر المستجد ولكن في صحراء المهمل.

يبدو وادي تثليث بالنظر إليه ناحية الجنوب تجاه أعلى الوادي، كأنه ينحدر بزاوية (٢٠) درجة إلى الجنوب الغربي، إلى مسافة كيلومترين ثم ينحني في لطف،

ناحية الجنوب، بين روابٍ منخفضة سوداء، بعضها تكسوه الرمال حيث يقف بينها تل الحضا شامخاً على بعد ستة أميال على الجانب الأيسر من المجرى. على حين يقف تل بجاد على مسافة أقرب من ذلك تبلغ ميلين، أما تل بجيد فهو على بعد ميل ونصف الميل. وهما كل ما يمكن تمييزه من علامات لأميال وأميال. بناءً على ما أورده حسن، فإن أقصى القرى الشمالية التابعة لمحافظة وادي تثليث هي قريته، الكهيف وعلى بعد (٤٠) كم إلى الجنوب من موقعنا، توجد بئر بزيز عند منتصف المسافة إلى قرية الكهيف، وتقريباً في الاتجاه نفسه. وقرية الكهيف حديثة نسبياً، تأسست حوالي ١٩٢٠م بصفتها معسكراً للإخوان. ويقع عدد من القرى فيما وراء هذه القرية وتجاه أعلى الوادي وممتدة في اتجاه جنوب غربي، تابعة لقحطان بالترتيب التالي: النقرة ورئيسها ابن عبود؛ المدينة وبالقرب منها بئر الرين التابعة لقسم المشاعلة برئاسة ابن حسون، ويبدو أنه رئيس كل هذه القرى، وجاش التابعة لقسم المساردة، مع بعض التلال ناحية الغرب تسمى وجر الحمر وتحتوي على برك صخرية مائية عديدة؛ والصبيخة[١]، مقر ابن شفلوت من عبيدة أو القسم الرئيس لقحطان الجنوب؛ طريب ويحكمها ابن عادي أحد زعماء قبيلة عبيدة[٢]؛ والعرين التابعة لقسم الحرقان[٣]، وأخيراً الحمضة التابعة لقسم مكثرّ. كما قال حسن، إن

(١) الصبيخة: مقر ابن شفلوت شيخ شمل قبائل عبيدة قحطان، أما عبارة «القسم الرئيس لقحطان الجنوب» فهذا غير صحيح؛ لأن في قحطان الجنوب قبائل رئيسة أخرى مثل: رفيدة، وبني بشر، وسنحان، وشريف وغيرها. مقابلة مع سعيد بن جغشر أحد طلاب الدراسات العليا بقسم التاريخ، بجامعة الملك خالد (ابن جريس).

(٢) طريب: تسكنها عدة قبائل ينسب أغلبها إلى آل الصقر من عبيدة، ولهم مشائخهم، ولم يحكمها في وقت زيارة فيلبي ابن عادي المذكور، والصحيح أن آل عادي قسم كبير من قبيلة الجرابيع، والرئاسة فيهم، بل في أسرة آل طمسان الذي يطلق على الواحد منهم ابن عادي. مقابلة مع سعيد بن جغشر (ابن جريس).

(٣) العرين: يعرف بعرين بلاد قحطان، ويضم العديد من فروع وفخوذ قبائل عبيدة، ويمثل الحرقان بها نسبة (٧٠٪) من السكان. انظر: محمد بن سعيد النهاري. **العرين بلاد قحطان ماض وحضارة**. (الرياض: مطابع الفرزدق، د. ت) ص ٨٢ وما بعدها (ابن جريس).

امتداد هذه القرى في الوادي من النقرة إلى الحمضة هو حوالي رحلة يوم ونصف سيراً على الأقدام، ربما حوالي (٣٠) ميلاً أو أكثر. يمر الطريق الرئيس من أبها إلى نجران، والذي أصبح عملياً نتيجة لحركة العربات منذ حرب ١٩٣٤م، عبر واحة تثليث عند طريب ثم يجري إلى الحمضة وهكذا إلى الحصينية على حافة وادي حبونا.

تحدث حسن عن أهالي قرية المشاعلة ذاكراً بأنهم أحسن القحطانيين في فن قص الأثر[١]، وضرب مثلاً بإبل ضاعت وأعادوها من مناطق بعيدة، مثل وسط نجد، أو حتى بعد فترة ضياع امتدت (٢٠) عاماً. يميز القحطانيون الشماليون من عبيدة في الجنوب بالاسم العام الجحادرة[٢]، وكان شيخهم الأكبر خليل بن ناصر ابن عمر، يتمركز في هجرة الإخوان التي تسمى «الرين» في جوار القويعية والرويضة. لقد أشرت من قبل إلى فيصل بن حشر، ومراكزه في منطقة الخرج، والذي تحولت أعباؤه إلى الحفيد محمد بن سحمي وهو رجل في متوسط العمر، له عينان تطرفان في لمعة لم أر مثلهما في الجزيرة العربية. كان فيصل نفسه شخصية فوق العادة، وأذكر أنه، أخبرني أنه لم يشرب الماء طول حياته. كان شرابه العادي هو الحليب، أما القهوة والشاي كرفاهية. أخبرنا حسن أن سعر تكلفة الزواج عند قحطانيي تثليث كان حوالي (٣٠) ريالاً بينما في مدن الحجاز يصل ذلك إلى حوالي (٣٠) جنيها ذهبياً.

---

(١) ما ذكر عن أهالي قرية المشاعلة في قص الأثر صحيح ومعروف على مستوى بلاد قحطان. (ابن جريس).

(٢) كان الأفضل إيراد الجملة بهذه الصيغة لتكون صحيحة علمياً: «الجحادرة فرع كبيرة من قبيلة سنحان، إحدى قبائل قحطان، وعبيدة فرع آخر ليس له صلة مع الجحادرة إلا في انتسابهم جميعاً إلى قحطان القبيلة الأم». (ابن جريس).

قمنا بتقويض معسكرنا عند الساعة السابعة والنصف في اليوم التالي بعد أن شاهدنا كل ما نود رؤيته من منطقة تثليث من هذا الموقع، وعبرنا الوادي إلى منطقة تليه تشكل سلاسل ومنخفضات في تتابع متبادل. ويبدو أن المنخفضات قد حملت جزءاً كبيراً من سيل ١٩١٧م لأن بطونها ممتلئة ببقايا ركام، يحتوي على قطع عديدة من جذوع النخل، حملها السيل من المناطق الواقعة في أعلى الوادي. وجدنا أجزاء من بيض النعام عند عبورنا إلى ما وراء الحدود الشمالية للسيل، كانت ملقاة على ممر هضبة منخفضة يكسوها الرمل حول تل بجيد الذي سرنا على حافة جانبه الشمالي لنصل إلى سهل حجري رملي متداخل بين تلال سود منخفضة غير متناسقة المنظر، وإلى ممر نفود معتبر اسمه «عريقات البجاد» - يقع التل الذي يحمل هذا الاسم إلى حوالي ميلين إلى يسارنا وخلفه على مسافة تل الحضا - أو باختصار العرق. بدأت هنا نباتات العلقا الخضراء في الظهور في قوة وأصبح السهل رملياً أكثر، كلما اقتربنا ناحية الكثبان، والتي دخلناها بالفعل بعد مسيرة ستة أميال تقريباً من موقع معسكرنا الليلي، بدأت الأزهار الصغيرة الربيعية في الظهور فوق السطح في كل مكان نتيجة للأمطار الأخيرة، ولكن إبلنا سارت فوقها في تكبر متجهة ناحية الشجيرات الكبيرة الصحراوية الجافة. كان أكثر النباتات وفرة هو البقل التي تشبه كثيراً الزهر الموجود في الربع الخالي، وربما كان هو نفسه، ولكن تحت اسم مختلف.

ظهرت، عند هذه النقطة، الحافة الشرقية، للدرب الرملي للعرق من جهة الجنوب وتمتد ناحية الشرق، إلى مسافة ثلاثة أميال، قبل مواصلتها الاتجاه إلى الشمال. برزت بوضوح شجيرات الغضى من بين الكثبان بينما، من حين لآخر، تظهر شرائط أشجار الطرفاء الخضراء معلمة المجاري الصغيرة التي تقوم بتصريف

المياه إلى مجرى تثليث. ويصبح النفود على الحافة الغربية أكثر صعوبة ويبلغ عرضه خمسة أميال على خط مسيرتنا، وكانت المجموعة الأخيرة من الكثبان، متتابعة بعضها البعض، مع وجود مجارٍ عميقة بينها، مما يسبب محنة قاسية على جمالنا مع ارتفاع درجة حرارة الظهيرة. يوجد فيما وراء الرمال سهل واسع، منبسط، يكون حينا رملياً وحيناً طينياً مع وجود -من حين لآخر- حجارة مبعثرة وحصا أحمر أو رمادي أو أخضر من الجرانيت مختلطاً مع كتل صخرية شاخصة على هيئة القبب أيضاً من جرانيت مماثلة لما يمكن رؤيته في سهل الدوادمي على البعد ناحية الشمال. ويحف هذا الوادي شريط العرق الذي يتباعد تدريجياً عن طريقنا، تجاه الجنوب الغربي حيناً وتجاه الجنوب الشرقي حيناً بالتوالي، بينما يوجد أمامنا على بعد، خط طويل لجبال سوداء مكونة قاعدة المثلث. لا يوجد اسم محلي لهذه السلسلة، ولكن يعد كل قسم منها وحدة قائمة بذاتها، ابتداءً من الكتلة الجبلية لأبي نعمي[1] في أقصى الجنوب، وقائمة إما على حافة وادي تثليث، أو في أحد روافده، بالقرب من المستوطنات الواقعة أكثر ناحية الشمال. يأتي بعد ذلك وبالترتيب، تجاه الشمال سلسلة جبلية طويلة تسمى جبال الشنخاب مع سلسلة حُبي، حيث يوجد بئر حبية إلى جانب قمة بارزة تقع إلى الجنوب الغربي من موقعنا.

أما جهتنا الغربية فقد كانت مغطاة بتلال بني شاحطة ومرتفعات شوحطة التي تنتهي بقمتين واضحتين، بينما إلى الشمال يمتد جبل الصخرة إلى نقطة تقع على الشمال الغربي من موقعنا. تمتد أصابع من رمال مبعثرة من النفود إلى الخارج داخل السهل على كلا الجانبين، وتنتهي إلى امتداد منخفض مسطح، يقوم بحمل تصريف مياه الجبال ناحية الجنوب إلى تثليث.

(١) أبو نعمي: من جبال تثليث المشهورة. (ابن جريس).

يقع مسارنا -بالطبع- فوق سهل مسطح ميت، يبدأ تدريجياً بالتحول إلى سطح حصوي، مع بعض الأحواض الضحلة من حين لآخر، ذات الغطاء النباتي الطازج، كنا نسمح لإبلنا برعيها. توقفنا في أحد هذه الأحواض لمدة ساعة لتناول وجبة الغداء بينما تركنا الإبل تستمتع «بالشمعة» أو الأعشاب الموسمية، التي كانت في أغلبها نبات الحمص الذي يبدو كأنه جاف جداً. لم تكن وجبتنا بحق أكثر فاتحة للشهية، فهي مكونة فقط من التمر، إلى جانب الصنف العادي من المشروبات السائلة المنعشة. كان كل من زايد ومحيميد صائماً هذا اليوم، لقضاء عدة أيام أفطراها في رمضان وقد صاما قبله اليوم السابق أيضاً، وقد كان حسن دليلنا في رفقتهم. كما قد أعلن بعض أعضاء الفريق أنهم سيقومون بقضاء أيام رمضان حينما يصلون إلى رفاهية مناطق الحضارة. انهمك أولئك الصائمون -لقضاء الوقت- بمعالجة أقدام بعض الجمال، والتي بدأت تحس بتأثير الأرض الصخرية التي طرقناها منذ البداية من وادي الدواسر. يسمى الدواء الذي كان يستخدم في علاجها (بالصبر) يبدو أنه يستخلص من لحاء أشجار الطلح التي توظف أيضاً كقابض لبعض أوجاع البشر.

واصلنا مسيرتنا عبر طرق الجمال العديدة المتجهة إلى بئر حبية التي يقال إنها على بعد عشرة أميال ناحية الجنوب الغربي، وتقع هذه البئر بين وادي شنخاب وحُبي. وقد توقفنا أثناء مسيرتنا عبر السهل لأداء صلاة الظهر والعصر جمعاً. كان العرق هنا على بعد ميل واحد فقط على يسارنا، وثلاثة أمثال ذلك على يميننا، بينما بدأت الجبال من أمامنا، وهي الآن قريبة، سلسلة جبلية ضخمة واحدة تمتد من الجنوب نحو الشمال. بدأ سطح السهل يتحول تدريجياً نحو الخشونة كلما

اقتربنا من المصرف الضحل الذي يجري إلى الأسفل على امتداد السلسلة كلها. تكررت فيه آثار وجود الظباء برغم أننا لم نر حيواناً واحداً. كان الغطاء النباتي -على أية حال- وافراً تتخلله وبوضوح شجيرات السمر وعشبة الثمام. إنني وبقدر ما أستطيع القول: إن هذا الوادي ليس له مخرج لأن جانبه الجنوبي تعترضه رمال العرق؛ ولهذا فهو يفيد كمقر للماء وتكوين منطقة رعي مستديمة.

تنجرف السيول إليه من التلال والهضبات البعيدة وفي أودية رملية شبكية شبيهة بالمروحة. تقدمنا بحثاً عن موقع مناسب نقضي فيه تلك الليلة. انتشر الأعراب في اتجاهات مختلفة، بحثاً عن موقع رعي مناسب، وما هو إلاَّ وقت قصير حتى تصايحت كل مجموعة منادية البقية لتتبعها إلى المراعي المثالية. وأثناء الفوران غير المنضبط الذي نتج تبعاً لذلك؛ فقد تتبعتُ خطى زايد ومجموعته وترجلنا بعد فترة في وادي بهيج، يبلغ عرضه (٥٠٠) ياردة، يقع بين هضبات بارزة لسلسة شوحطة المخضرة بالأعشاب النجيلية وشجيرات الطلح. تركت الفرقة لتستقر في المعسكر وسرت حوالي (٥٠٠) ياردة، لأفحص صخوراً بارزة من الجرانيت الأحمر، ذات مظهر مثير للاهتمام، كونت هذه الصخور دائرة طبيعية، قطرها حوالي (٥٠) ياردة، مكونة من قطع ضخمة ثلاث قطع منها متقاربة مكونة كهفاً مظللاً يتجه ناحية الجنوب. ولا بد أنه استخدم من قبل الرعاة منذ عصور سحيقة وقد وجدت على أحد جدرانه رسماً بدائياً مدمراً جداً. يمثل رجلاً راكباً جملاً. ارتفعت الصخرة إلى حوالي (١٥) أو (٢٠) قدماً، ونبتت في ثبات شجيرات العبل في الشقوق بين الصخور. وتغطي الموقع مخلفات الأغنام، وكان الكهف وما حوله مأوى لعدد قليل من الخفافيش والسحالي.

كان الطقس لا يزال بارداً ولطيفاً بلا رياح صباح اليوم التالي (٢٣ مارس) حينها واصلنا مسيرتنا خلال شبكة من الصخور المتساقطة، وخلال تلال مكونة لسلسلة إقليم بني حبي وإقليم شوحطة. يصعب جداً تحديد شريط فاصل بينهما. وكان دليلنا حسن، غير قاطع في هذا الأمر. استمر الوادي، الذي عسكرنا فيه، إلى ما وراء مضيق منخفض للإمساك بالمياه وضخها إلى وادي أصغر يسمى شعيب ختلان الذي يقع -بصفة عامة- ممر حُبي إلى جنوبه وتقع شوحطة إلى شماله. امتلأت هذه المنطقة ببطون أودية صغيرة، أشار إليها حسن باسم ريضان حبي وكانت الصخور والهضبات، في معظمها ذات لون داكن أو أسود، بازلتي السمة. كانت الجبال التي تقع فيما يلي سهل ضيق وراء شعيب ختلان ذات لون أحمر داكن عميق، ويبدو أنها مصنفة ضمن تكوين شوحطة. يجري السهل نفسه إلى أسفل، على يسارنا ناحية مصب شعيب دويرة وهو قناة معتبرة، علينا أن ندخلها فيما بعد، وبرز حاجز العرق الرملي، والذي كان أبرز سمة لمسيرتنا خلال اليوم السابق. انتصب إلى البعيد، ناحية الجنوب، جبل أبو نعمي كمعلم أرضي بارز ومن خلفه تكوين تلي آخر.

كان الوقت قد تجاوز التاسعة صباحاً بقليل، حينما دخلنا وادياً مريحاً في وسط جروف حمر شوحطة، وقررنا أن نتوقف لنتناول الإفطار. انتصبت أشجار الطلح الضخمة كأهرامات صغيرة مقلوبة مرحبة بنا بظلالها لنتقي حرارة الشمس، وانتشر العديد من أعضاء فرقنا في التلال بحثاً عن برك المياه، التي قال حسن إنها منتشرة في هذه الأراضي الجرانيتية. وعادوا ومعهم كميات كبيرة من مياه الأمطار العذبة، بينما رجع حسن الآخر -خر الذيب- بعد مدة من إقامتنا للمعسكر حاملاً

معه صيداً للطهي. فرحنا جداً لرؤية أول ظبي إدمى جميلة وضخمة حاملة بغزال كان كامل التكوين، يبدو أنه كان على وشك أن يولد. أعلن زايد عن نيته الصيام لليوم الثالث على التوالي ولكن رؤيته لحسن وهو يركض خلف الظبي هدَّ أركان نيته فالتحق مع بقيتنا في تذوق قطع اللحم الطرية للطريدة التي تم شيها في الرماد، بينما طبخت القطع الأكبر في القدر. كانت شهيتي هذه الأيام -ومنذ أن تخلصت من آثار النزلة المعوية للسّليل- مفتوحة، فإلى جانب الوجبات كنت أحمل معي دائماً خبزاً محمصاً بالرماد لكي أتلذذ بمضغه أثناء مسيرتي. يبدو لي أنني كنت دائماً أمضغ. تواصل توقفنا إلى مدى أربع ساعات وإحساسنا بالرفض وعدم الرغبة لمواصلة السير، جهزنا الجمال بعد جهد كبير لمواصلة رحلتنا. لقد قامت معظم الحيوانات بجهد قليل للحصول على الطعام وظلت حول المعسكر، لعلها مستغربة إن لم تكن قد عادت مرة أخرى إلى الربع الخالي! لقد أثر إجهاد تلك الرحلة على قدرتها على الاحتمال، فهي الآن وعلى بعد ثلاثة أيام فقط من آخر موقع شرب لها، ظمآنة ظمأ يمنعها عن التفكير في الأكل. كانت الحرارة نهاراً عنيفة بالطبع، في هذا الفضاء المحترق من صخور ورمال.

لاحظنا، قبل وصولنا إلى هذا الموقع بقليل، آثاراً حديثة لإبل راعية، تابعة لقبيلة قحطان، ومن ثم عبرت الدرب الواضح المعالم الذي يتجه إلى جنوب الجنوب الغربي من بئر حبية، كان هدفنا الخاص هو الوصول إلى آبار ملح التي تقع في طريق مسيرتنا بصفة عامة، وعلى درب مماثل يقود في ذلك الاتجاه - ناحية جهة غرب الجنوب الغربي-. طاردت كلبتنا العقفاء وبشجاعة وبلا فائدة ظبياً وبدا عليها أنها ممتلئة بالنشاط برغم حرارة الجو. إنها -بالطبع- تحظى من وقت لآخر بالركوب على ظهر واحد من جمال التحميل أو الآخر.

لاحظنا بعد فترة ليست بالطويلة منذ بداية مسيرتنا، بعض الآثار لظبي ريم (أبيض) كما رأينا بعد فترة جملاً منفرداً ضالاً عليه وسم أهالي بيشة. كانت هذه المنطقة -بوضوح- مفضلة لرعي الحيوانات المستأنسة والبرية، وكان هنالك تنوع غير طبيعي للنباتات الصحراوية، ثرية في نموها بصفة عامة، أكثر مما قد توقعنا. مررنا كذلك عبر مناظر مؤثرة لهذه الجبال الحمراء المبعثرة، هنا وهناك، ذات الحواجز السوداء البازلتية. أثرت عوامل التعرية في جانب منها، وحقيقة أدت عملية التعرية بواسطة الرياح والطقس إلى نحت أحد هذه الحواجز حتى برز إلى ارتفاع عدة أقدام، كأنه جدار صناعي يمتد عمودياً على جانب التل من أسفل إلى أعلى.

دخلنا هنا -بالتقريب- في وادي شعيب دويرة، وهو قناة رملية ذات مساحات طينية أو حصوية ينمو عليها في كثافة، نبات الحرمل الدائم الخضرة والذي تجذب أزهاره الجميلة أعداداً كبيرة من فراشات الصخور الكبريتية. تمكنا من رؤية جبال العرق مع اتجاه الوادي وعلى يسارنا، على بعد مسافة ميلين ونصف، ساداً مصب الشعيب والذي نتبعه الآن صعوداً بين ضفتين منخفضتين غير واضحتين. لاحظنا كذلك بعد فترة، آثار سيل حديث جرى في بطن الوادي الرطب، ولكن لا يوجد تجمع لبرك الماء. كما وجدنا بالقرب من المكان نفسه مجموعة من الآبار عددها ست كانت تبدو وكأنها مهجورة منذ زمن بعيد، برغم أن حسن لم يسمع عن وجودها مطلقاً. غطّينا ثلاثة أو أربعة أميال في هذا الممر، والذي قال عنه حسن

(١) الميثب: أرض واسعة فيها جبال وهضاب وأودية ومناهل، تقع بين محافظتي بيشة وتثليث، والميثب لا يزال يحتفظ باسمه القديم السبيعي، مواضع بني بيشة وتثليث، نشر بمجلة العرب س٣١، ص٣٨١. (المراجعون).

بأنه جزء من حُبي وليس شواحطة الذي يقع الآن خلفنا. لم يكن رأس المجرى بعيداً حينما برزنا إلى خارجه عند الشاطئ الأيسر، إلى أرض مرتفعة من هضبات بازلتية ذات حجارة مفككة. لاحظت بعيداً ناحية جنوب الجنوب الغربي مجموعة من قمم منعزلة تعرف باسم بني بسقان أحدها هو زب جلدان اسم يوحي بما فيه الكفاية عن الشكل العام لتل غريب الشكل. إن أعرابي الصحراء على استعداد دوماً لإعطاء أسماء قبيحة لعلامات أرضه. نحن الآن على موقع يمكن اعتباره المجمع المائي بين شعيب الدويرة وشعيب ملح وهو نوع من الممرات يكون بين الهضبات البازلتية – وقد غيرنا مسارنا تجاهه ناحية الجنوب أكثر مع وجود تلال بني بسقان الواقعة أمامنا تقريباً. لقد بدأت تظهر لنا التلال الرقامية السماقية القرمزية (سماقي) لشعيب ملح نفسه وكان أبرزها أشعل ملح من الجهة الأمامية وإلى اليمين، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في قنوات متجمعة لمجاري سيل منحدرة من ناحية التلال مكونة نواة شعيب ملح. توجد عند هذا الموقع مجموعة قبور تغطيها الحجارة إلى جانب نصب تذكارية قائمة على هضبة منخفضة بارزة عند منتصف الطريق، عبر رأس الوادي، كأنها سد لم يكتمل بناؤه.

سرنا مع المجرى، بعد انعطافنا بحدة في اتجاه الشرق، وقد طوقتنا على الجانبين هضبات ترسبية من صخور رخامية وبازلتية، كلها تلمع بألوان بنفسجية تتلألأ على ضوء الشمس الغاربة. ثم وصلنا بعد حوالي نصف الميل، إلى شريط من ست آبار، كلها قائمة على الجانب الرملي من بطن السيل، وكلها، ما عدا البئر الخامسة، كانت مغمورة بالرمال ومهملة. وقد أمضينا الليلة معسكرين حول البئر العاملة الوحيدة التي كان محيط صهريجها حوالي عشرة أقدام عند الجزء الأعلى، وكانت هذه البئر مبطنة إلى مستوى سطح الماء، ببلوكات من الصخر

الرخامي البنفسجي نفسه، الذي كان يلاحظ في الهضبات المحيطة. كانت الحجارة عند فم البئر محفورة عميقاً بفعل احتكاك الحبال عبر الأجيال العديدة، لسحب الدلاء. كان الماء عند عمق (٣٠) قدماً تحت سطح الوادي وكانت مالحة بعض الشيء، ولكنها صالحة للشرب. ويبدو لنا من هذا المكان أن الوادي يجري ناحية الشمال الشرقي لعدة أميال، إلى أن يختفي مجراه في متاهة التلال. وينمو على مسافة قليلة من الآبار مع اتجاه النهر، وعلى الجانب الآخر للوادي غابة حقيقية من شجيرات الحرمل، وينتشر معها نبات المرخ وشجيرات الطلح، كما كانت أسراب فراشات الكبريت تحلق في وفرة كبيرة. كان ارتفاعنا فوق سطح البحر عند هذه النقطة حوالي (٤٠٠٠) قدم وكان من دواعي الفرحة لنا أن نجلس في الوادي الرملي، بعد العشاء وتحت قبة السماء الصافية لنتحدث عن الجن والسحرة وهو موضوع تكلم فيه حسن (خر الذيب) باستمرار، مع اعتقاد بليغ كأي معتنق ملزم في الوجود الحقيقي للعالم التحتي شبه الإلهي، شبه الإنساني وللأرواح، وفي مقدرة الخبراء البشريين على طردها.

ذكر حسن القحطاني أن منطقة تثليث تبعد عن آبار ملح بحوالي (٣٠) إلى (٤٠) ميلاً ناحية شرق الجنوب الشرقي. وتقع القرى السفلى لوادي بيشة ناحية الغرب، وتكون مدينة رنية بعيداً ناحية الشمال الغربي. وتبعاً لقوله، فإن مكة تقع حوالي (٢٠) درجة شمال غرب بئر حبية ناحية الشرق على بعد حوالي (١٥) ميلاً أو يزيد.

هبطت بجوار البئر أسراب من القطاة واليمام في الوقت الذي كنا نتهيأ فيه لمواصلة مسيرتنا. مرتدين عكس اتجاه الوادي إلى المقبرة، ومن هناك نمضي ناحية

يسار الطريق الذي سلكناه بالأمس. يبدو لنا أننا كنا نتبع رافداً للصرف، هو واحد من الروافد العديدة لشعيب الملح، أثناء عبورنا عبر التلال والهضبات المنخفضة بصفة عامة. والتحق بالوادي بعد مسافة رافد عريض من ناحية الشمال، من تلال بسقان، ثم استقبلنا بعد قليل منبسطاً عريضاً كالنهر، من ترسبات الجبس، بدا لنا وعلى امتداد طول ميلين كأنه يأتي من جهة الغرب، وفي هذا المكان تقريباً خط حسن الحدود الشرقية للسهل الصحراوي الواسع، وتظهر عليه هنا وهناك تلال وهضبات متفرقة تدعى الميثب[1].

قمنا بحفظ حبارى داخل كيس أثناء مسيرتنا وهذه الحياة الحيوانية كانت شحيحة جداً برغم أن ساعات الصباح المبكرة كانت باردة بشكل ممتع. انتشرت سحب خفيفة في السماء ولم تكن هنالك رياح. وصل المجرى الذي كنا نتبعه، إلى رأس في ركام لشعيبات صغيرة تسمى «السر»، عبرنا بعدها فوق هضبة منخفضة ومن هناك إلى سهل مرتفع من هضبات وقمم مخططة بخطوط داكنة اللون الأخضر، كانت عبارة عن مجارٍ عديدة للصرف. توقفنا في أحدها (شعيب ريضة) من الساعة العاشرة صباحاً إلى الواحدة ظهراً وتركنا الجمال ترعى لتشبع بعد آخر سقيا لها. رأيت في هذا الموقع ثلاثة مسايل الأول عرفناه منذ مغادرتنا الربع الخالي! ولا يبدو أن هنالك حيوانات برغم الثراء الظاهر للمناطق المجاورة، كما كانت شجيرة الوهط المشهورة بأشواكها القوية والكريهة، في وفرة هنا، غير أننا لم نلحظ إلاَّ القليل منها ناحية الشرق.

---

(١) الميثب: ماء لعقيل، وهو واد من أودية الأعراض التي تسيل من الحجاز إلى نجد، ويقع بين بلاد بيشة وتثليث، ولا زال يحمل الاسم نفسه حتى الآن. ياقوت، **معجم البلدان**، جـ٥، ص٢٢١، ٢٤١، فهيد ابن عبدالله السبيعي (مواضع بين بيشة وتثليث) **مجلةالعرب**، جـ (٥ ــ ٦) س (٣١) (١٤١٣هـ / ١٩٩٦م) ص ٣٨١ . (ابن جريس).

يقف بعيداً، نحو الجنوب، زب جلدان ومرافقوه من تلال بسقان، مكونة مجموعة عرضها حوالي ستة أميال، على الجانب الغربي من مستوطنات تثليث. وتقع على بعد ثلاثة أميال، في الاتجاه نفسه، السلسلة الطويلة لأشقر عجلان وتوجد على قرب منا المجموعتان التوأم الحمراء والسوداء لريدة من ناحية الجنوب الغربي ومن الشمال الغربي بالتتالي، وتتميز الأخيرة منها بتل ذي رأس صغير أبيض مخروطي يسمى العبل ولعله من أصل كوارتزي. تبدو بلاد الميثب كأنها منتزه لكثرة الأودية الشجيرية التي تخترقه، وتحتضن بلاد الميثب قطعة أرض واسعة غرب قرية الملح وشمال بني بسقان. كان ذلك استرخاءً ممتعاً لنا، بعد تعب الصحراء الصعبة الصخرية من خلفنا، وقد استمتعنا بها إلى أقصى حد أثناء تناولنا وليمتنا في وقت الفراغ. كوّن لحم الطرائد الصحن الرئيس لوجبة غدائنا مع حساء لذيذ (المرق) من الأصل نفسه ومقدار من الخبز والتمر، والسمن مخلوطة كلها مع بعضها البعض وتسمى حنيني. وكان نصيب الكلاب أيضاً وجبة كاملة، ولكن الكلبة عقفاء، ذات العقل المدبر، أخذت تلعق نوى التمر الذي لفظناه كما كانت عادتها دائماً في الصحراء، حيث كان نصيبها من الطعام قليلاً.

كان الحديث عن الطعام هو الموضوع الرئيس عندما واصلنا مسيرتنا في وقت مبكر من بعد الظهر. كان اليوم حاراً بعض الشيء ومتجهم بسحب خفيفة ورياح حارة إلى حد ما. في بعض الأماكن تكشفت الصخور التحتية الجرانيتية للسهل، ولكن في معظم أجزائه يكون السطح من طين ناعم ما عدا بعض المواقع التي كانت رملية. بدأت آثار الغزلان تتكرر، وبعد مسيرة ثلاثة أميال التقطنا أول انطباع عن اقترابنا من الحضارة بظهور قطعان ضأن ترعى مع عدد من رؤوس الجمال. وسرعان ما تقابلنا مع ثلاثة رجال ينتمون لفرع سعد القحطاني وتبادلنا معهم

الأخبار. ثم لمحت على مسافة ليست بعيدة خيمة وقطيع أغنام وامرأة ترعاها. كان هذا على ممر فوق هضاب تكسوه الرمال جزئياً يسمى برق الذيعان، وعلى الهضبة إلى يسارنا كانت هنالك بعض البرك المائية في أحواض صخرية طبيعية. اتضح أن هؤلاء الرعاة ينتمون إلى شيت أحد بطون بني سعد يتمركزون عادة في وادي شحمة حول جبل كلاب. كان عليهم على أية حال هجر مزارعهم المعتادة بسبب تقليد ثأر قديم مع أحد البطون الآخرين. إنهم يبدون -بالتأكيد- منعزلين جداً، وبائسين في وسط هذا الخلاء العريض.

ظهرت، على البعد من أمامنا، ناحية اليمين، قمة خشيم الذيب، بينما تطلعنا أثناء خروجنا من ممر برق الضيان إلى الأمام عبر السهل إلى حيث شريط التلال السوداء المنخفضة: أبو عرفة إلى الجنوب من السيدان[1]. توجهنا على امتداد الطرف الشمالي للسهل الأخير، وكان سهل الميثب في هذا المكان صورة طبق الأصل من سهل ركبة إلى الشمال. انتبهنا لضب يقوم بحركة لطيفة للحظات، ثم يهرب لنجاته. أصبح السهل وعراً تدريجياً، وأكثر رملاً، إلى أن دخلنا المنخفض الضحل الممتد شمالاً - جنوباً، أمام تلال السيدان يسمى هذا الوادي غار الشقيحان. ولكنه كان مثبطاً للآمال بالنسبة للغطاء النباتي، حيث كانت شجيراته جافة جداً، ومنفرة، ولذلك عبرناه لنعسكر في غار آخر على الجانب الشرقي من سلسلة السيدان مدركين أن مساء الغد سيطل علينا ونحن ننعم بترف الحياة في بيشة. وهكذا قطعنا (١٠٨) أميال خلال خمسة أيام كاملة من

(١) السيدان: جبل أسود يقع في الميثب، وهو من أشهر أعلامها، وما يزال يحتفظ باسمه القديم. الحربي، **منطقة عسير**، ج٢، ص، ٨٦٠ (ابن جريس).

اللدام وهذا ليس بالمعدل المرتفع جداً للمسيرة، ولكنه ليس بالسيء إذا اعتبرنا السجل الشاق لجمالنا منذ أوائل يناير.

واصلنا مسيرتنا من المعسكر على درب فوق تلال بازلتية وذلك عند الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالي، بعد ليلة كانت مميزة بالدفء أكثر مما عهدنا منذ مغادرتنا وادي الدواسر. كانت التلال متناثرة أمام الجسم الرئيس لسلسلة السيدان ومن هناك التفنا حول الطرف الشمالي للسيدان إلى فجوة واسعة - عرضها ميل واحد تقريباً - تفصلنا عن الطرف الجنوبي لكتلة بارزة تسمى خشيم الذيب مواجهة لوادي بيشة وتلاله عبر سهل واسع. تتواصل مسيرتنا التي تتجه تدريجياً ناحية الشمال الغربي، نحو هذا اللسان الأرضي الذي يقع فوق سهل واسع متموج من رمال شاحبة، به شجيرات قليلة منخفضة ومتباعدة. من بين هذه التلال يقع كل من أنبك، وأضرس[١] ذات الهضبة السوداء على جهة اليمين، على الجانب القريب لسلسلة خشم الذيب. بينما شمخت إلى مسافة نحو الغرب، قمة منعزلة تسمى عرفجان على الطريق المباشر للروشن، عاصمة منطقة بيشة. تبدأ تلال بيشة على مسافة من عرفجان وقد بدأت على شكل شريط لتلال منخفضة، الواحد منها خلف الآخر، متفاوتة الارتفاع في درجات كما يبدو، لتتصل بسلسلة جبل يَلا[٢] على الجانب القريب للوادي. كان لهذه السلسلة لون أحمر وقمتان بارزتان على هيئة الأنف.

كان هنالك عدد كبير من أشجار الوهط الجافة المنتشرة فوق كل السطح الذي كان يلمع بسبب ملايين النباتات النامية، والحشائش، التي بدأت تظهر نتيجة

(١) أضرس: جبل أسود على شكل ضرس الإنسان، يقع في أرض الميثب، بين بيشة وتثليث. الحربي، **منطقة عسير**، ج١، ص١٧٥. (ابن جريس).

(٢) يلا: من جبال بيشة المشهورة. (ابن جريس).

للأمطار. شرع حسن (خر الذيب) في مطاردة لبعض الظباء، رآها على بعد، وعاد ومعه ذكر بديع وكنا قد وصلنا إلى سفح خشيم الذيب واستقر بنا المقام لتناول وجبة الغداء عند بطن سيل شعيب الجاره الهابط من عدد من مسايله الجارية. وينساب على مسافة ناحية الشرق نازلاً، سيل آخر مماثل هو (شعيب كربه) منساباً ناحية السهل من السلسلة نفسها، كان باطنه وإلى مسافة في عمق السهل مكسواً بأشجار الطلح الكثيفة. أوضحت آثار أخفاف الإبل المنتشرة فوق كل هذه المسافة، أن المكان كان منزلاً مفضّلاً لقطعان أهل بيشة. كانت كتلة خشيم الذيب نفسها من جرانيت أحمر لافت للنظر، واتجاهها العام من ناحية الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وترتفع في المتوسط إلى حوالي (١٠٠٠) قدم فوق سطح السهل، وعلى نقيضها كانت سلسلة أنبك التي تقابلها عبر السهل سوداء في لون الفحم. تشكل سلسلة السيدان الحد الفاصل للماء بين بيشة إلى الغرب، والمصرف الذي يتجه آخر المطاف مع العديد من المسايل على شعب الملح ناحية الشرق. وتعد بلاد هذا السهل الواقعة بين هذين الواديين تابعة للميثب .

مكثنا في معسكرنا منذ منتصف النهار مدة أربع ساعات تقريباً، آخذين الأمور في يسر لأننا كنا تقريباً على مشارف نهاية السير. ظهر أمامنا منظر كامل لنظام وادي بيشة بعد أن التففنا حول الجرف العظيم لخشيم الذيب بعد مواصلتنا للمسيرة. تجري سلسلة جبل ثملا على بعد عشرة كيلومترات ناحية الشمال الغربي إلى ما وراء الوادي وقد اكتسبت اسمها من بئر تقع في مجرى بيشة ناحية شمال الشمال الغربي، ماؤه عذب حلو، كما قالوا، ويوجد عند عمق قامتين فقط. برزت قمة الجفة الضخمة خلف الكتف الأيمن لثملا مع سلسلة منخفضة منسحبة بعيداً عنه في العمق الشرقي البعيد. كما برز العديد من العلامات الأرضية المختلفة

ناحية الغرب وكـذلك إلى ناحية الجنوب الغربي متوزعة حول مـجرى بيشة وهي: مـخروط العـميـد، وتل بني سليم الأسـود المنخـفض والسلسلة القـصيـرة لبني جمعور[١] بقمتيه البارزتين. تطل أمامنا مزارع الجنينة أكثر قرى بيشة انخفاضاً إبان دخولنا منخفضاً ضخمـاً لشجيرات الحمض الذي كانت ترعى عليه -في تكاسل- جمال سود وأخرى بنية سـوداء عديدة. انتهى الجزء الأول من رحلتنا ووصلنا بعد مرورنا بـبرج مراقـبة مـحطم يقع على يسارنا، إلى الحـد الشرقي لمزارع النـخيل وحقول القمح الـتابعة لقرية الجنينة. قمنا بنصب المعسكر فـي المجرى نفسه، الذي كانت بعض أجـزاء بطنه لا تزال رطبة، ومـشبعـة بالماء من آخر سـيل، وقد أطل علينا ناحية الشـرق، قوس جميل لمزارع النخيل. كـانت المسافة من هنا إلى اللدام عن طريق الممر الذي سلكناه حوالي (١٣٢) ميـلاً وقد قطعناها في ستة أيام كاملة من المسير، لم تكن هينة.

(١) جمعور: من أشهر جبال بيشة. (ابن جريس).

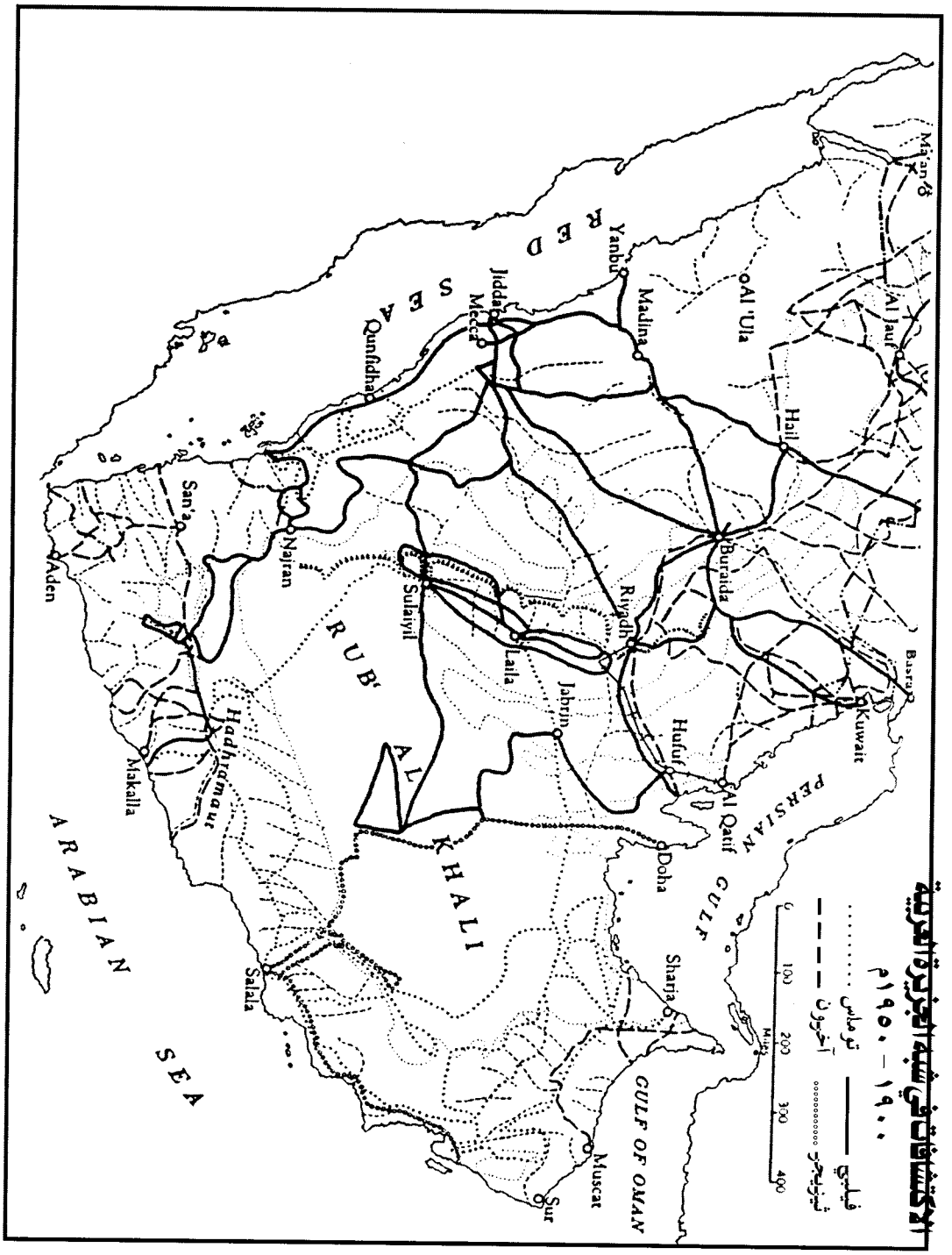
الاكتشافات في شبه الجزيرة العربية
١٩٠٠ – ١٩٥٠م
فيليبي
توماس
آخرون
Ma'an
Al Jauf
Yanbu'
Madina
Al 'Ula
Jidda
Mecca
Qunfidhah
Hail
Buraida
Riyadh
Sulayyil
Laila
Jabrin
Najran
San'a
Aden
Hadhramaut
Makalla
Salala
Hufuf
Basra
Kuwait
Al Qatif
Doha
Sharja
Muscat
Sur
RED SEA
RUB' AL KHALI
PERSIAN GULF
GULF OF OMAN
ARABIAN SEA